المجلة العراقية للبحوث الإنسانية والإجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 - Electronic ISSN 2790-1254
العدد 18A2 2025 تشرين1
No. 18A2 2025 October

نسق اليوتوبيا والديستوبيا في المنجز السردي لضاري الغضبان

الباحثة نرجس علي نور الياسري
أ.م.د ضرغام عدنان صالح الياسري
جامعة سومر/ كلية التربية الأساسية

المستخلص:

يدرس هذا البحث ثنائية اليوتوبيا والديستوبيا في المنجز السردي للأديب العراقي ضاري الغضبان، بوصف هذه الثنائية أحدى الموضوعات التي حضرت بشكل واضح في نتاجه الأدبية، مما شكل ظاهرة تستحق الدراسة، فقد حضرت اليوتوبيا بدلالاتها الاصطلاحية الفلسفية وبما تعبر عنه من حمولةٌ مفاهيمية مثالية أو فاضلة في النصوص المدروسة على وفق إجراء سردي تفاعل مع مجمل الخطاب عند الأديب. وكذلك الديستوبيا فقد حضرت بما تعبر عنهُ من دلالة على مدن الخراب واستحكام الشر في النصوص المدروسة. ومن الجدير بالذكر، أن حضور هذه الثنائية جاءَ بسياقاتٍ متعددة تفاعلت مع عناصر البناء السردي (الشخصية، الزمان، المكان) فضلاً عن تداخلها مع تقنيات السرد كالعتبات النصية، والحوارات السردية، ووصف الشخصيات والأمكنة.

الكلمات المفتاحية: اليوتوبيا، الديستوبيا، ضاري الغضبان.

The Utopian and Dystopian Traditions in the Narrative Achievements of Dhari al-Ghadhban

Researcher Narjis Ali Nour al-Yasiri
Assistant Professor Dhurgham Adnan Saleh al-Yasiri
Sumer University/College of Basic Education

:Abstract

dystopia binary in the narrative works of the -This research studies the utopia considering this binary as one of the major ،Ghadhban-Iraqi writer Dhari Al themes that clearly appear in his literary production, thus forming a phenomenon worthy of study.Utopia appears in its philosophical and terminological sense, k within the analyzed representing an ideal or virtuous conceptual framewor texts, shaped through a narrative process that interacts with the overall discourse Similarly, dystopia is present expression of ruined cities and the .of the author at the dominance of evil within the studied texts.It is worth mentioning th presence of this binary appears in various contexts, interacting with the elements in addition to its -structure such as character, time, and place of narrative intersection with narrative techniques like textual thresholds, dialogues, and the -rds: Utopia, Dystopia, Dhari Alption of characters and settings.Keywodescri Ghadhban

المقدمة:

تُعدّ ثنائية اليوتوبيا والديستوبيا، أحدى الموضوعات التي سجلت حضوراً جلياً في المنجز السردي لضاري الغضبان، ضمن علاقات دلالية تصدر عن دلالة اليوتوبيا على المثالية أو الفضيلة، ودلالة الديستوبيا على أماكن الخراب واستحكام الشر.

وقد توزعت المادة العلمية في هذا البحث على مبحثين، درس المبحث الأول تمثلات اليوتوبيا في القصص والروايات موضوع الدراسة، بينما درس المبحث الثاني تمثلات الديستوبيا في النصوص المدروسة،

وجاء تحليل النصوص والمقتبسات مسلطاً الضوء على التداخل بين هذه الثنائية مع عناصر البناء السردي وتقنيات السرد، مما كشف عن إمكانات سردية جمالية توافر عليها الإجراء الأدبي للنصوص المدروسة.

المبحث الأول

اليوتوبيا في المنجز السردي لضاري الغضبان

اليوتوبيا أو "المدينة الفاضلة" تمثل مفهوماً ثقافياً وفلسفياً يتجاوز مجرد الحلم الأدبي، إذ تجسد رغبة الإنسان نحو العيش في عالم أفضل مع مواجهة تحديات الواقع، حيث يلجأ المبدع سواء كان فيلسوفاً أو كاتباً إلى تصور عوالم متخيلة تعكس أعمق تطلعاته محو الخير والعدالة والانسجام الاجتماعي، ويختفي فيه الفقر والعوز، فتتحول اليوتوبيا بذلك إلى أداة معرفية للتأمل في إمكانيات الإصلاح الاجتماعي وصياغة بدائل مثالية للواقع القائم، وقد عرفها الباحثون على أنها ((ضرب من التأليف الأدبي أو الفلسفي يتخيل فيه كاتبه الحياة في مجتمع مثالي لا وجود له، مجتمع يزخر بأسباب الراحة والسعادة لكل بني البشر))[1].

وقد عرف الناقد الأمريكي "لويس ممفورد" اليوتوبيا في كتابه "قصة اليوتوبيا" بتعريفين أساسيين:

الأول: اليوتوبيا بوصفها "الهروب" وهي حالة ذهنية يترك فيها الإنسان الواقع من دون تغيير، وينصرف إلى تشييد قصور خيالية في الهواء. والثاني: اليوتوبيا بوصفها "إعادة بناء" أي مشروع شامل لإعادة تشكيل الواقع بما يتوافق مع طموحات الإنسان، وكأن الفرد يستعين بمهندس معماري يصوغ له منزل أحلامه[2]. وقد ذهب الفيلسوف الألماني "هاربت ماركيز" إلى أن اليوتوبيا ((تعبر عن المشروع الإنساني الذي يعاني الكبت والقهر الاجتماعي))[3].

كما يقصد بها على أنها وهم أو حلم أو مثل أعلى متخيل، غير أن مدلولها الأوسع يشير إلى فلسفة مثالية ذات أبعاد اجتماعية وسياسية لا تنطلق من الواقع القائم ولا تراعي حدوده[4]. وهذا ما يجعلها قائمة على التخيل المعلّق بين الممكن والمستحيل، إلا أن هذه المفارقة هي بالضبط ما يمنحها قوتها، إذ أنها ليست مجرد هروب من الواقع، بل هي أداة لتفكيكه وتجاوز حدوده الضيقة.

وجذور هذا المفهوم ممتدة في أعماق التاريخ، إذ لا تنبثق اليوتوبيا من فراغ، بل تمثل امتداداً لرؤى فكرية سابقة تجلت في أعمال الفلاسفة القدامى، ومن أبرزها "جمهورية أفلاطون" التي تُعدّ أول عمل يوتوبي يقدّم تصوراً متكاملاً لمجتمع مثالي، يقوم على العدالة والتوازن الاجتماعي والأخلاقي في نسيج واحد، وتشمل جميع مؤسساته، وقد ظهرت هذه الرؤية في زمن تفكك المدن اليونانية وتصاعد الصراعات الدامية، خصوصاً الحرب الطويلة بين أثنا وإسبرطة، فكان هدف أفلاطون تأسيس مدينة فاضلة تجمع العدالة والفضيلة والاخاء، وتحقق السعادة الأخلاقية للفرد والجماعة، مؤكداً أن السعي نحو الحياة الفاضلة والعادلة يثاب عليه الإنسان في الدنيا والآخرة على حد سواء[5].

([1])معجم مصطلحات الأدب، د. محمود علي مكي و فاروق شوشة، ط1، دار الكتب، القاهرة، 2007، ج1، ص8.
([2])ينظر اليوتوبيا والديستوبيا في رواية أحمد خالد توفيق، إنجي خالد أحمد، ط1، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2023، ص124.

([3])الأيديولوجيا نحو نظرة تكاملية، د. محمد سبيلا، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992، ص45.

([4])معجم النقد الأدبي، كامل عويد العامري،ط1، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، 2013، ص429-430.

([5])ينظر الأمل واليوتوبيا في فلسفة إرنست بلوخ، عطيات أبو السعود، ط1، مؤسسة هنداوي للنشر، 2021، ص333.

كما امتد هذا المفهوم عبر التاريخ لتشمل الأدب اليوتوبي الذي قدّم نماذج متخيلة لمجتمعات مثالية، مثل مدينة الشمس لتوماس كامبانيللا، وأطلنطس الجديدة لفرنسيس بيكون، وكذلك رواية تليماك لفينلون، وكتاب الرحلة إلى إيكاريا لكابت، والمدينة الفاضلة للفارابي، ومدينة الله لأوغسطين[1]. ويظهر في هذه الأعمال كيف أن الأدب اليوتوبي ليس مجرد خيال أو فانتازيا، بل وسيلة لتصور المستقبل، والتحذير من سلبيات الواقع وتقديم نماذج مجتمعية يحتذى بها[2].

أما المصطلح ذاته فيعود إلى الفيلسوف الإنكليزي "توماس مور" الذي صاغة ونشره عام 1516 في كتابة الشهير "يوتوبيا"[3]. وقد اشتقه من كلمتين إغريقيتين: هما "OU" بمعنى "لا" و "topos" بمعنى "مكان" ليكون المعنى "اللا مكان" أو المكان الذي لا وجود له في الواقع[4]. ومنذ ذلك الحين، انطلق هذا المصطلح ليشمل الأدبيات العالمية والعربية بوصفه نموذجاً خيالياً لمجتمع متكامل يتحرر من علل البشرية الأساسية كالجشع والصراع والجهل، ولا يوجد في بقعة محددة على الأرض، بل في مخيلة صانعة بذهن الكاتب[5]. كما تهدف اليوتوبيا إلى تجاوز السياسة التقليدية من خلال تصور مساحات مثالية معزولة اجتماعياً، وغالباً ما تكون جزراً أو أماكن بعيدة خالية من الصراع الطبقي والتدخلات الخارجية، مما يضمن حياة مستقرة ومزدهرة[6].

وقد أوضح عالم الاجتماع الألماني "كارل مانهايم" أن الحالة الذهنية تصبح يوتوبية عندما تدخل في تعارض مباشر مع الواقع الفعلي، وهو ما يعكس التوتر الدائم بين الحلم والممارسة الواقعية، ويظهر كيف أن التفكير اليوتوبي يتجاوز حدود الواقع ليقدم تصورات مستقبلية نحو ما لم يوجد بعد[7]. وهو ما يجعلها قوة ديناميكية دافعة للتغيير التاريخي، على عكس "الإيديولوجيا" التي تميل إلى تبرير الوضع الراهن والحفاظ عليه.

وتطور المفهوم لاحقاً ليتجاوز نطاق النخبة الفكرية، ويصبح تعبيراً عن الوعي الجمعي والأحلام المشتركة للشعوب، ليدخل في علاقة جدلية مع مفهوم الإيديولوجيات الذي ارتبط بالعقل النقدي في عصر التنوير وسعيه إلى مواجهة الأفكار الا معقولة والميتافيزيقية غير التقدمية[8]. غير أن السلطات المهيمنة على مر التاريخ عملت على تهميش هذا الطموح ونعته بالسذاجة وعدم الواقعية، فتحولت اليوتوبيا من خطاب فكري سائد إلى مجرد أحلام متشتتة وأمنيات طفولية تتوارى في القصص الشعبية والأساطير والأفلام[9]. ومع ذلك، فإن اليوتوبيا ليست مجرد هروب من الواقع أو خيال طفولي، بل هي ((نوع من التفكير- التخييل، الرغبي المستقبلي، الذي ينطلق من/ ويحاول أن يتجاوز آلام ومصاعب {الواقع –

([1])ينظر المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، د. عبدالمنعم الحنفي، ط3، مكتبة مدبولي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص957.

([2])ينظر اليوتوبية: مقدمة قصيرة جداً، لايمان تاور سارجنت، تر: ضياء ورَّاد، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2016، ص15.

([3])ينظر مفاتيح اصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، طوني بينيت ولورانس غروسبيرغ وميغان موريس، تر: سعيد الغانمي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2010، ص717.

([4])ينظر اليوتوبية: مقدمة قصيرة جداً، ص10.

([5])ينظر المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ماريا لويزا برنيري، تر: د. عطيات أبو السعود، ط1، عالم المعرفة، الكويت، 1997، ص9.

([6])ينظر اليوتوبيا معياراً نقدياً، كامل شياع، تر: سهيل نجم، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، بغداد، 2012، ص38.

([7])ينظر الايديولوجيا واليوتوبيا: مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة، كارل مانهايم، تر: د. محمد رجا الديريني، ط1، شركة المكتبات الكويتية، الكويت، 1980، ص247.

([8])ينظر السلطة والهامش إستراتيجية النقد الثقافي في مقاربة المتخيل الأدبي، ص61-62.

([9])ينظر المصدر نفسه، ص62.

الحاضر} ورسم، أو تخيل، صورة أعدل وأجمل وأبهى لعالم يمكن تشييده على الارض، إنه حلم الإنسان الأبدي، ومقصد كفاحه في سبيل السعادة))[1].

مما تقدم يمكن القول أن اليوتوبيا فلسفة تعبر عن الأمل بعالم يتصور فيه الخير شاملاً، وخالياً من الشرور، تسوده العدلة والسلام ، فهي وسيلة للتخلص من القهر والكبت، حتى وإن كانت واقعاً متخيلاً لا يمت بصلة مباشرة إلى العالم القائم، إلا أنها تظل أفقاً مفتوحاً لإمكانيات التقدم والتجديد والتحضر.

وقد حضرت اليوتوبيا في المنجز السردي لضاري الغضبان موزعة بين قصصه ورواياته وفي سياق يتداخل مع الحياة الاجتماعية في مجتمعه السردي، وتتجسد على شكل نسق ثقافي مضمر، يواري خطابه خلف الصريح من القول السردي، فالكاتب لا يصرح علناً بها بل من خلال شخصياته السردية وأحداثها، وإنما يتبين ذلك من خلال الخطاب المضمر الذي يستجليه التأويل والتحليل النقدي، وتأتي قصة **"مصنع السعادة"** التي يستهل بها الكاتب، مجموعته القصصية **"نادي الحفاة"** متضمنة لنسق اليوتوبيا وذلك من خلال استهلال الرواية، لخبر دعوة شكوى رسمية مقدمة ضد أشخاص ثلاثة، وهم أصحاب مشروع وبناية مصنع السعادة: ((**تناقلت مواقع التواصل الاجتماعي خبر الدعوة ضد الأشخاص الثلاثة، والتهم الموجهة ضدهم التي اختلف حولها سكان المدينة، اتهامات من قبيل إيواء الهاربات من بيوت ذويهن، أو مبيت لصوص في البيت المعروف بمصنع السعادة، الذي يسكنه ويديره الثلاثة المثيرون للجدل، سواء بطريقة عيشهم أو علاقاتهم، ومن أكثر التهم إثارة هي؛ السماح للسكن المختلط بين النساء والرجال في موقع واحد، في مدينة يسودها عرف اجتماعي وديني محافظ**))[2].

فهذا النص يهيئ ذهن القارئ لمشكلة واتهام حول أبطال القصة الثلاث، من قبيل إيواء الهاربات من البيوت أو من اللصوص أو السماح للسكن المختلط بين النساء والرجال، وهذه التهم مدعاة لإثارة المشاكل على المستوى الرسمي وكذلك الاجتماعي، فضلاً عن الإشكالات الدينية في مجتمع محافظ، إلا أن القصة بعد هذه البداية الإشكالية، تتولى أحداثها بنسق متصاعد نحو قيم الفضيلة أي اليوتوبيا، فأبطال القصة الثلاثة هم قصص مؤطرة داخل المعمار الكلي للقصة، فالأول منهم يطلقون عليه الدكتور بعد أن ترك الدراسة في كلية الطب؛ بسبب ضجره من تشريح أناس لا يعرفهم، بينما الثاني ترك الدراسة في كلية الهندسة لأنه صحح أخطاء في منهج الدراسة المتعلق بقانون فيزيائي، مما أثار المشاكل ضده اضطرته لترك الدراسة، بينما الشخصية الثالثة فقد كان موسوعياً ومرجعاً لطلبة الدراسات العليا، إلا أنهُ كان يتأتأ عند النطق.

ويستمر سرد الأحداث كيف أن هؤلاء الثلاثة تغلبوا على مشاكلهم الخاصة، وقدموا أنفسهم مضيفين للمهمشين ومسلوبي الإرادة والحقوق، ثم يتحول السرد من خلال تقنية السرد الموضوعي إلى بيان وكشف القيم الإنسانية والأخلاقية.

((أذهلني هذا التحرّر من القيود النقلية، كان كل شيء يتم دون تكلف وبكل تلقائية ولا يؤدي لردود أفعال مبالغ فيها من الآخرين، حواراتهم مقتضبة بيد أن كلماتهم عميقة الدلالة، لا أحد يقاطع أحداً، لا جدال ولا حوارات دينية أو سياسية، لا تكلّف في التعبيرات، بل البساطة واللغة السهلة والصوت الهادئ ديدن الجميع رغم اختلاف مؤهلاتهم العلمية والدراسية، لكن لا تعال أو تزلف)) [3].

يتكشف من خلال هذا النص، أن مجتمع بناية مصنع السعادة يعيش عالمة الخاص المملوء بالهدوء والاستقرار النفسي، بعيداً عن صخب المدينة وشكوكها واتهاماتها التي وصلت إلى درجة تدخل التحقيقات

([1])اليوتوبيا المفقودة، محمد كامل الخطيب، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، دمشق، 2001، ص8.

([2])نادي الحفاة (مجموعة قصصية)، ص9.
([3])نادي الحفاة (مجموعة قصصية)، ص15.

الرسمية، فضلاً عن الشائعات والتأويلات الاجتماعية، فلا تكلف في حياتهم بل كانت تلقائية خالية من ردود الأفعال المبالغ فيها، مترفعة عن جدال الحوارات الدينية والسياسية التي عادة ما تنتهي بالخصومة والاختلاف، فصوتهم هادئ وعيشتهم بسيطة ولغتهم سهلة لا تعالٍ فيها أو تزلف بعد أن تجاوزا اختلاف مؤهلاتهم العلمية.

ويستمر نسق اليوتوبيا في هذه القصة عبر استرجاع الحقوق المسلوبة لساكني مصنع السعادة: **((قبل أن يرجع السمين وهو يضحك بسعادة، ويعلن بأنه صفع الشخص الذي انتقص منه سابقاً، نهضوا مباركين له، ثُمَّ نصحوه بالابتعاد عن الدار؛ خوفاً من دعوة جديدة قد يقدمها المصفوع))**[1]

يشير السارد إلى إمكانية أخذ ساكني مصنع السعادة لحقوقهم، وهذا هو السرد اليوتوبي الخيالي الذي يتحقق على مستوى الافتراض دون تحققه في واقع الحياة.

وتستمر القصة بعرض مشكلات الحياة، التي تواجه بقية أفراد مصنع السعادة بعد أن يتوثق حلها، ومن ذلك على سبيل المثال: **((فتوضح بأن للفتاة حبيباً فقيراً، وأن النحلات في مملكة السعادة سيرتبن السيناريو لزواجهما رغم أنف الفوارق الطبقية.**

كانت تلك أعظم ليلة في حياتي، اطلعت على حبكات مغلفة بالقيم لم يسعها خيالي القصصي))[2].

يكشف هذا النص أن طبيعة الحياة المثالية في مصنع السعادة تتفوق على الفوارق الطبقية واكراهاتها الاجتماعية، وهذا النسق السردي ما هو ألا يوتوبيا خيالية ومثالية بينهما وبين واقع الحياة بون واسع، ويكتمل النسق المضمر المثالي في هذه القصة في مشهدها الأخير: **((فقد بقي كبير القضاة واقفاً كتمثال، خلال فترة اشتباك المحامين المؤيدين والمناوئين وخلال طروحات المدعي العام التي بدت ساخرة وغامضة على غير العادة، واستخدم الواقف مطرقته كثيراً؛ لإسكات الأصوات المؤيدة والمعارضة على حد سواء، حتى تلا القرار الذي برأ فيه الثلاثة من التهم الموجهة ضدهم، وطالب لهم بتعويض معنوي - كل هذا متوقع - أما تأكيده أن هذه الدائرة المسماة بدار العدالة لم تحقق العدل مثل الدار القديمة المختلف عليها، ثُمَّ إعلانه الاستقالة من القضاء، والطلب من الثلاثة قبوله مع الجنود المجهولين للسكن في مصنع السعادة))**[3].

هذا المشهد الأخير من القصة هو أسلوب كتابة سردية عند ضاري الغضبان في أغلب قصصه ورواياته، فالقيم الأخلاقية والإنسانية هي المنتصرة دائماً على قيم الشر، وأكثر من ذلك فإن رئيس المحكمة الذي برأ أبطال القصة الثلاثة من التهم الموجهة ضدهم، حيث انضم بعد استقالته إلى فريقهم الساعي دائماً إلى إعالة وأغاثه المحرومين ومسلوبي الحقوق، وكل هذه الحبكة السردية يتجلى من خلال أحداثها وشخصياتها يوتوبيا السرد المثالي وفضائله الرفيعة.

ويمكن القول أن نسق اليوتوبيا في هذه القصة أضمر نقداً أو رفضاً ضمنياً لواقع الحياة في بعدية الجماعي والفردي، فالمجتمع تقوده الشائعات والأفراد يصدقونها.

وتميل قصة **"نادي الحفاة"** إلى النزوع السردي نحو اليوتوبيا، إذ اشتغلت هذه القصة على تداخل نسقين فكريين مختلفين، الأول يساري اشتراكي تقدمي، والثاني يميني ديني محافظ، يجتمعا في بقعة أرض واحدة على ضفاف النهر، دون أدنى اشتباك أو مواجهة بين الطرفين، وهذا السياق مما يثير العجب عند السارد: **((ومن الأعجب؛ وجود ثلاثة رواد للجنا للجناح اليسار واثنين من الجناح اليمين كانوا ممن تم إنقاذهم مِن قِبَل رجال البقعة عن الغرق أو الانتحار، وكل حسب ميوله الفكرية أو الدينية، وأحد المنقذين من**

([1])المصدر نفسه، ص17.
([2])المصدر نفسه، ص18-19.
([3]) نادي الحفاة (مجموعة قصصية)، ص20.

الشعراء الزجال، وقد كتب قصيدة باللهجة العامية بهذه المفارقة، ولحنها وغناها مطرب شاب على العود من رواد اليسار، وتجمع الطرفان لسماعها في ملتقى الجناحين بناصية النهر، حيث تم انقاذ الشاعر آنذاك وحضر وفد من الشرطة النهرية للاستماع كبادرة تضامن وإعجاب منهم، ومن خلفهم عموم الشرطة، والسلطة الرسمية))[1].

فمن خلال هذا النص يبين السارد طبيعة التكوين المعرفي والثقافي لمرتادي ضفة النهر، فاليساريون مشغلون بأفكارهم التقدمية الوافدة من البيئات الشيوعية، بينما اليمينيون مشغولون ببناهم الفكرية الدينية وما يرافقها من طقوس وشعائر، ومجمل القصة يتجه نحو حالة من السلام والوئام بين طرفين مختلفين فكرياً، وربما يعرّض السرد عبر النسقية المضمرة بالواقع الاجتماعي المختلف تماماً عن البنية النفسية في هذه القصة، إذ تشهد بعض مكونات المجتمع العراقي صراعات فكرية وثقافية حادة بين هذه الأطراف المختلفة، لذلك يعمد السارد ومن خلفه الكاتب ضاري الغضبان إلى التعويض الخيالي الذي يتيح أمكانية حل وفض الخصومات على صفحات السرد، بعد أن قوض واقع الحياة الفعلي إمكانية إحلال الانسجام بين الأطراف المختلفة ثقافياً، فهذا النص يصرح بحالة الانقاذ من الغرق أو الانتحار، إذ اجتمع اليساريون واليمينيون على نجدة الشاعر الذي حاول الانتحار، وهم ثلاثة وكان أحدهم من الشعراء الذي كتب قصيدة بهذه المفارقة وغناها مطرب شاب من رواد اليسار، وتجمع الطرفان لسماعها؛ من أجل ترسيخ حالة الوئام هذه وتكريسها في السرد، فقد حضر وفد من الشرطة النهرية للاستماع، مما يعني تصفير المشاكل والخصومات بينهما، فالشرطة تحضر للستماع للغناء والاشتراك في محفلهم، وليس لفظ النزاعات والخصومات بينهما.

ويتخلل اليوتوبيا السردية بعض المنغصات التي تؤكد حضور الشر في واقع الحياة، وأن كان نسق اليوتوبيا مستحكماً في بنية القصة، فبعد دخول "ابن صوفان" التاجر الجشع ورغبته في الاستحواذ على ضفة النهر؛ لأغراض تجارية تخصه، وقد حاول تدبير المكائد لهما عبر اتهامهم بالإتجار أو تعاطي الممنوعات: **((غير أن الفريقين لم يقبلوا ببيع قيمهم، وتركوا الأمر للقضاء، والذي أصدر أمراً غريباً وهو؛ تبرئة المتهمين كونهم ليسوا من أصحاب السوابق))**[2].

فالسرد يعطف أو ينحاز إلى جانب الفريقين، عبر تبني تبرأة الطرفين من قبل القضاء، إلا أن التاجر الجشع وبطرق غير شرعية وملتوية، تمكن من الاستحواذ على بقعة ضفة النهر، ويتكرر نسق اليوتوبيا حيث العقاب القدري الذي طال التاجر الجشع، حيث لدغته أفعى ومات منها، لترجع ضفة النهر إلى اليسار واليمين على حد سواء: **((لذا تجددت فعاليات مختلفة تدور في فلك الإبداع في مختلف الأدوار، وكانت أجمل الفعاليات حفل زواج الفتاة التي كانت تلك الصبية ـ بطلة موقعة الانتحار ـ حيث عقد قرانها على مهندس شاب في الهيكل البهيج مساءً))**[3].

في هذا المشهد الأخير من القصة، عادت الفعاليات الإبداعية إلى الموقع، وقد استفاد الطرفان من البناية التي شيدها التاجر، لعقد أنشطتهم الإنسانية ومنها زواج الفتاة التي سبق أن حاولت الانتحار، وهذه النهاية السعيدة في القصة ما هي إلا استحكام نسق اليوتوبيا الذي قوض أفعال الشر، وأنهى وجود أهل الشر المتمثل بالتاجر ابن صوفان.

ويأتي الخطاب السردي في رواية "زهور الدمن" للروائي ضاري الغضبان، مستجمعاً لنسق اليوتوبيا في تعاليه على الشر واستلاب الإنسان وامتهان كرامته، فبطل الرواية "مارد" المحترف لمهنة اللصوصية وجد نفسه وسط عالم تشوبه الشرور والشكوك والريبة، إذ وضعه السرد بين عدد من الشخصيات السردية

([1])نادي الحفاة (مجموعة قصصية)، ص83.
([2])نادي الحفاة (مجموعة قصصية)، ص89.

([3])المصدر نفسه، ص92.

التي تدور حولها الشبهات، بين العمل في المواخير وبيوت الدعارة وغسيل الأموال وحتى القتل، ويستمر سرد الأحداث لصراع الشخصيات على هذا النسق المتوتر والمتصاعد، فهو يتردد في الشك أثناء عمله مع الشاعر "سعف حصران" وزوجته "غروب" فهما يدعيان العمل على إنقاذ المخطوفات والمعنفات وجمعهن في مزرعة خارج المدينة، يشك مارد أنها لزراعة وتجارة المخدرات: **((لم تكن هذه المعلومة سهلة الهضم على ذاكرة مارد المتخمة بدسم المعلومات المتوالية عليه منذ أن اصطحب فلافل وعذراء خارج بيت عبدوش، غروب زوجة الشاعر حقيقة أربكته، فتلك السيدة الغامضة التي تأوي طيفاً من النساء المتمردات والتي تدير مزرعة، لم يتحقق جيداً ما تنتج، وفي ضوء موانع دخولها وغموض عملها قد تكون هنالك زراعة مُخدرات، بقي مارد يدور في فلك التساؤلات بينما كان سعف منغمساً في كتابته الشعرية على ما يبدو))**[1].

فمن خلال هذا النص تبدو شكوك مارد قوية جداً، وذاكرته متخمه بالمعلومات بين الشاعر والنساء وعبدوش، إذ يرى أن السرية التي تحيط بعملهم في المزرعة مدعاة للشك، وهذا الشك يدعوه للتحقق من عدم استغلاله واستغفاله للعمل معهم دون وعي منه او اراده، وتستمر حبكة الصراع السردي في أحداث الرواية وشخصياتها، ومهما تزداد شكوك ومخاوف مارد من انخراطه بالعمل في تجارة المخدرات التي يرفضها، وقد حاول الشاعر سعف وزوجته غروب إقناعه بخطأ شكوكه وضرورة الخروج من أوهامه، إلا أنهُ ظل مصراً على التشكيك بهما، إلى أن تتكشف له الحقائق كما عرضتها نهاية الرواية، فتلك الصناديق المغلقة التي تدخل وتخرج من المزرعة بصورة محكمة الأغلاق وبرقابة وحراسة شديدتين، ما هي إلا صناديق زهور متنوعة الأشكال والألوان، وهنا يتجلى نسق اليوتوبيا في هذه الرواية، فالعالم الخارجي الذي تحيط به أفعال الشر بددهُ استكشاف الحقائق، فالمزروعات زهور وأسماؤها تتطابق مع أسماء الفتيات المخطوفات والمعنفات، بعد أن أنقذهن الشاعر سعف حصران وزوجته غروب: **((وتقرب لأول مرة لتلك الصناديق الغامضة التي تحمل في السيارات الصندوقية وحين تفحصها بيده، توقف بتعجب؛ فقد وجدها عبارة عن زهورا وتوسع بالتحري على كل المعروض، فلم يجد غير الزهور ولكن بألوان وأنواع متعددة ولتوكيد ما رآه، أراد التحري بين المشاتل والمزارع، فكان له ما أراد، وذهب مع كوكبة النساء اللواتي كن يحملن أسماء الزهور في موضع سابق، ودار بعربة مدولية في طول وعرض المزارع؛ فلم يجد غير زهور تغرس وأخرى تنمو وكثيرة ناضجة ومعدة للتسويق، بينما تنشط نساء ببدلات العمل وهن يسمدن التراب تحت الزهور بالدمن الذي فقد الكثير من نتانته؛ بعد تعرضه لأشعة الشمس))**[2]

فتحقق بطل الرواية مارد بنفسه من محتويات الصناديق ونوعية المزروعات، فوجدها زهوراً وكل النساء اللواتي كانت مثار شكوكه واحتمالاته، ما هن إلا نساء تم استنقاذهن من عالم المدينة المغرق بالشر، وهذا السياق السردي على نحو عام وأن ابتدأ في الشر، إلا أنه انتهى نهاية يوتوبية خيرة أبعد ما تكون عن شكوك مارد، ومن الجدير بالذكر أن هذا النسق اليوتوبي لم يقف عند حدود المسارات العامة لخطاب الرواية، بل أنه تعمق في مكونات النفس الإنسانية؛ وذلك من خلال إظهار عنصر الخير في النفس الإنسانية وأن كان صاحبها لصاً قديماً.

فضاري الغضبان في مجمل علمه السردي وخصوصاً رواية "زهور الدمن" ينحاز إلى الإنسان دائماً، ويرى في بعض الجناة كاللصوص مثلاً أو النساء العاملات في المواخير، أنهم ضحايا الظروف عائلية واجتماعية واقتصادية قاهرة، ساقتهم إلى مثابات الشر والانحلال، وما أن تسمح لهم فرصة الخلاص فإنهم سيعودون إلى فطرتهم الإنسانية السوية، ويترك فعل الشر وكل ذلك نسقاً من اليوتوبيا تتجسد سردياً ضمن أطر عامة تشكل خصائص ومعالم المدينة الفاضلة، أو أنها تعمل على جانب فردي وشخصي كما في

([1])زهور الدمن(رواية)، ضاري الغضبان، ص19.

([2]) زهور الدمن (رواية)، ص89-90.

شخصية مارد الذي أنساق في نهاية الرواية إلى عمل الخير بعد أن كان متماهياً مع الشر في مدينة الخراب أي الديستوبيا، وهذا ما سيتضح لاحقاً في النسق السردي المضمر الآخر وهو الديستوبيا في سرد ضاري الغضبان.

المبحث الثاني

الديستوبيا في المنجز السردي لضاري الغضبان

بما أن "اليوتوبيا" تشير إلى "المكان الطيب" أو "المدينة الفاضلة" التي حلم بها الفلاسفة منذ عصر أفلاطون، فإن "الديستوبيا" ذات الأصل اليوناني الذي يعني "المكان السيء" أو "المكان المعطوب"[1]. إذ تقدّم نفسها كنقيض جوهري لهذه الفكرة، فهي ليست مجرد ضد اليوتوبيا، بل هي تحويل متعمد لحلم المدينة الفاضلة إلى كابوس مروع، حيث تتحول المبادئ المثالية إلى أدوات قمع وتسلط [2]. هذا العالم التخيلي يصبح مرآة عاكسة لأعمق مخاوف الإنسان الحديث من تحول التقدم إلى وسيلة استلاب، والحضارة إلى أداة استبداد.

وتمثل الديستوبيا مفهوماً فلسفياً وجودياً يعكس قلق الإنسان من المستقبل، إذ أنها تُرسم مجتمعاً وهمياً يتسم بالكآبة والقمع والتفكك، حيث ينتشر الفقر والمرض والظلم، وتُهدر كرامة الإنسان، ويختفي في هذا العالم المشوه، الخير ويحل محله الشر، وتنتشر فيه مظاهر سفك الدماء والخراب مما يؤدي إلى تجريد الإنسان من إنسانيته[3].

ويعود مصطلح "الديستوبيا" إلى منتصف القرن الثامن عشر وذلك في عام 1747، في كتاب "يوتوبيا: أو أيام أبوللو الذهبية" للكاتب "هنري لويس يونج"[4]. لكنه بقي مصطلحاً هامشياً حتى أحياه الفيلسوف الإنكليزي "جون ستيوارت ميل" في خطابه البرلماني عام 1868، ومع ذلك، لم يتحول إلى تيار أدبي وفكري مكتمل المعالم إلا في القرن العشرين[5]. وتُعدّ المعاناة السبب الأساسي في ظهور عالم الديستوبيا، سواء أكانت معاناة اجتماعية أم اقتصادية أم اخلاقية أم دينية أم ثقافية أم بيئية، إذ تمثل كل ديستوبيا في النهاية انعكاساً للواقع المرير الذي يعيشه الإنسان، حيث يتحول القمع السياسي والاستبداد الفكري إلى نسق يومي، ويتم تغييب الحقوق والحريات فيه[6].

وفي الحقل الأدبي، استعمل النقاد مصطلح الديستوبيا للإشارة إلى نوع سردي يقوم على تصوير مجتمعات تغلبت فيها النزعات المادية الجامحة والتوجهات السياسية المتطرفة حتى جُردت من إنسانيتها، وتلاشت منظومة القيم الأخلاقية تحت وطأة جشع المال والسلطة، فتتحول الحياة إلى آلة قاسية تسحق الأفراد داخل منظومة من السيطرة والرقابة والاستغلال[7]. ومن هذا المنطلق، يستهدف أدب الديستوبيا ((سهام النقد إلى مواقف في العالم الواقعي بإحالتها إلى سياق غير مألوف في عالم بالغ الخيالية))[8]. ليتأسس الخيال

([1])ينظر معجم مصطلحات الأدب، ص7.
([2])ينظر المرجع في روايات الخيال العلمي، كيث بوكر و آن ماري توماس، تر: عاطف يوسف محمود، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص127.

([3])ينظر أدب النهايات الإسرائيلي- البدايات والصيرورة، أنطوان شلحت، مجلة قضايا إسرائيلية، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، فلسطين، العدد60، ص28.

([4])ينظر اليوتوبية: مقدمة قصيرة جداً، ص11-12.
([5])ينظر اليوتوبية: مقدمة قصيرة جداً، ص33.
([6]) ينظر الديستوبيا في الرواية العربية المعاصرة(المدينة الفاسدة)، مجدولين علي عبدالرحمن، مجلة جرش للبحوث والدراسات، مج.23، العدد.2، 2022، ص2173.
([7])ينظر معجم مصطلحات الأدب، ص7.
([8])المرجع في روايات الخيال العلمي، ص127.

الديستوبي على ((أفكار أساسية بعينها تنطوي بطريقة أو بأخرى على تعارض وصراع بين الأحكام الاجتماعية والرغبات الفردية. وفي حال المدينة الفاسدة يكون للأحكام الاجتماعية اليد العليا. ومن شأن المؤسسات الرسمية كالكنائس والمدارس والشرطة أن تقويل الافكار والخيالات والسلوك بما يحدد للأفراد مجالا محدوداً للتعبير عن وجهات النظر المختلفة أو استعراض بدائل متنوعة لأسلوب حياتهم، وقد رأت المجتمعات الغربية في أوجه نشاط معينة المفاتيح الجوهرية لنمو وتطور هوية الأفراد وتحقيق رغباتهم الشخصية ومن ثم فهي تعمد إلى مراقبتها وإحكام السيطرة والهيمنة على العقل. ولإنزال العقوبة بالمخالفين))[1].

وقد برزت أعمال أدبية كرده فعل على أوهام اليوتوبيا وتفاؤلها المفرط، حيث ركزت على توثيق الواقع المعاش، ورسم مشاهد مأساوية لمستقبل متشائم وخالٍ من الأحلام، عالم تطغى عليه الفوضى والتلوث والخراب، ومن أبرز هذه الأعمال: ومن هذه الأعمال، رواية "عالم جديد شجاع" للكاتب البريطاني " ألدوس هكسلي" ، ورواية "1984" لـ "جورج أورويل" ، ورواية "فهرنهايت 451" لـ"راي برادبوري" ، ورواية "الرجل الراكض" لـ "ستيفن كينج"[2].

وفي سياق الأدب العربي، فقد ظهرت بعض الملامح والإشارات الديستوبية في أعمال "نجيب محفوظ" و"يوسف أدريس" و"عبدالرحمن الشرقاوي"[3]. لكنها لم تتشكل كمشروع سردي واضح ومكتمل. أما التجلي الفعلي للمفهوم في السرد العربي، فقد تبلور بشكل بارز مع صدور رواية "يوتوبيا" لـ "أحمد خالد توفيق" عام 2008[4]. التي دشنت بوضوح حضور الأدب الديستوبي في الثقافة العربية الحديثة. وأهم ما تناولته هذه الأعمال العربية: الطبقية الاجتماعية الموحشة، تزوير التاريخ، مراقبة الأفكار وتزييف الوعي، كذلك تناولت مواضيع تتعلق بالتحول القيمي، والدموية، والانحلال الأخلاقي، فضلاً عن نقد العبثية والامبالاة [5]. لذا فالأدب الديستوبي يمتلك سلاحاً نقدياً، إذ أنهُ ينقل المشكلات الواقعية إلى فضاء خيالي، مما يسمح بتفكيكها وتحليلها بمنظور مختلف، ومن خلال هذه المبالغة والتشويه، تكشف النصوص الديسوتبية عن الحقائق المغيبة والمسكوت عنها في مجتمعاتنا المعاصرة.

وأضاف المفكر العراقي "كامل شياع" في كتابه "اليوتوبيا معياراً نقدياً" بعداً فلسفياً عميقاً للديستوبيا، معتبراً إياها مجتمعاً خيالياً يسير بمنطق اللا عقل، ويعبر عن نظرة تشكيكية جذرية في قدرة التكنولوجيا على معالجة المعضلات الإنسانية، وأكد أن التكنولوجيا رغم ادعاءاتها التحريرية إلا أنها تُقلص في الواقع مساحة الحرية الإنسانية، وتُعمق القطيعة بين الإنسان والطبيعة، مما يثير تساؤلات حول القيم العلمية وتأثيراتها السلبية على حياة المجتمع البشري[6].

ختاماً، يتضح أن الديستوبيا تمثل النقيض المطلق لليوتوبيا، فهي تصور عالماً متخيلاً يسيطر عليه الشر والفساد والعنف، وتصبح فيه المآسي جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية، وفي ظل بيئات تخيم عليها الرقابة

([1])المصدر نفسه، ص128.
([2])ينظر نبوءات الخيال العلمي، ياسين أحمد سعيد، ط1، دار فانتازيون للنشر والتوزيع، مصر، 2018، ص89-91.

([3])ينظر ملامح الديستوبيا وتمظهراتها في المسرح العراقي، أ.م.د شيرين جلال محمد أحمد الطنطاوي، المجلة العلمية لعلوم التربية النوعية، ع.16، 2022، ص1705.
([4])ينظر الديستوبيا: المستقبل المخيف في الأدب العالمي، معتز حسانيين، مقال على شبكة الأنترنيت، 2016.

([5])ينظر الرواية الديستوبية المصرية (مظاهرها ولغتها)، أ.م.د أسماء إبراهيم حسين شنقار، مجلة كلية الدراسات الإسلامية الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور،ع.5، ج3، 2020، ص884.

([6])ينظر اليوتوبيا معياراً نقدياً، ص28.

والقيود الاجتماعية، يجد الكاتب نفسه عاجزاً عن التعبير المباشر عن نقده، فيلجأ إلى السرد التخيلي والرمزي ليكشف معاناة مجتمعه وأزماته الخفية، مستعرضاً الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية والتكنلوجية، لتتحول الأعمال الديستوبية إلى مرأة تعكس الواقع الذي نعيش فيه.

تحظر الديستوبيا في سرديات ضاري الغضبان بوصفها نسقاً ثقافياً، قل ما يحضر في صريح القول ولكن يحضر مضمراً، وذلك في اشتغال المجاميع القصصية والروايات ضمن بيئتها الداخلية في مجتمع السرد، ويلاحظ على هذا النسق أنه يؤدي وظائف خطابية تتضافر مع غيرها، لتنتج الملامح العامة للبناء السردي عند ضاري الغضبان، إذ لا تكفي النظرة المنفصلة إلى الديستوبيا إلا بربطها مع الأنساق الآخر مثل اليوتوبيا، فتؤلف مجتمعة المسارات العامة للسرد عند الكاتب، ومن الشواهد القصصية على هذا النسق قصة **"ربَّ بائعة البخور"** فهذه القصة تحكي حياة أو مأساة بائعة البخور التي وجدت نفسها بعد يتمها من أبيها مضطرة للعيش مع زوج أمها، الذي امتهنها لبيع عيدان البخور في السوق، وما جرته عليها هذه المهنة من معاناة المضايقة والتحرش، التي قادتها في نهاية القصة إلى إلقاء نفسها في النهر، بعد أن أجبروها على الزواج من ابن الجزار محترف بيع الممنوعات في المدينة، بينما هي كانت ترغب الزواج من مهندس استجمع مقومات الشخصية السوية: **((هربت على غير هدى، فوجدت نفسها تصعد الجسر، بينما مؤذن الجامع يكرر عبر المآذن دعوة البحث عنها، نظرت إلى السماء، كانت هنالك غيمة يتيمة بيضاء في غير أوانها، تقدمت تصعد الجسر وهي تبحث عن رب آخر، ربّ يقبل الصلاة الجميلة ولا يعاقب على ترك صلاة العادة، تسير وترنو إلى الماء تارة، والسماء تارة أخرى، بينما صوت سيارة الشرطة يسمع بوتيرة محذرة، أحست بأنهم سيلقون القبض عليها، وسيقتادونها لابن الجزار قرب الجحشة تماماً، نظرت للأسفل، كان النهر يجري، بينما صوت سيارة الشرطة يقترب أكثر التفتت كانت دراجة نارية تقترب بسرعة جنونية يقودها ابن الجزار، وأبوه يتشبث خلفه، لا حل سوى الهرب للرب.**

فألقت بنفسها في النهر دون إبطاء، وعندما لامست الماء فكرت بسرعة واستنتجت بأن السمك في النهر يصلي صلاة عبادة، وأن رب السمك مثل ربّ المهندس الشاب، لا يعاقب ناسي صلاة العادة، فغاصت وغاصت))[1].

نجد في هذا المقتبس الطويل نسبياً، أن عالم المدينة مكتض بالشر وانتهاك حق الإنسان في الحياة واختيار مصيره، فقد تعاضدت عناصر متعددة لتدمير حياة بطلة القصة بائعة البخور، فقسوة اليتم وقسوة الفقر يتبعهما اضطهاد اجتماعي في السوق، واعتداء وأذلال لتجد نفسها مكبلة بقيود يزعم أنها دينيه وقيمية، ففي الوقت الذي رغبت فيه بائعة البخور من الزواج بالمهندس، أجبرها زوج أمها على الزواج من ابن الجزار المشهور في السوق بأخلاقه السيئة، لذلك انساقت وراء قرار أكثر مأساوية وأشد إيلاماً، أذ رمت نفسها من على الجسر وسط النهر، في الوقت الذي كانت دوريات الشرطة تطارد خطيبها وأباه لجرائم ارتكابها، وقد مزج السرد بين عالم الشر في مدينة الديستوبيا وقهر الإنسان الضعيف، ليبين فداحة وقسوة استحكام الديستوبيا في حياة الإنسان المعاصر وخصوصاً الضعفاء كالبنت اليتيمة.

ونجد نسق الديستوبيا مسيطراً على المدينة في قصة **"خارج مدى الصوت"** للقاص ضاري الغضبان: **((أبواق السيارات تتقاطع صوت المارة يتقاطع، أصوات الباعة الجوالين تتشابك في ترغيب المتبضعين صوت سيارة إسعاف صم مسامع الجميع وأعقبه صوت سيارة الإطفاء مقرون بعويل وصراخ تواكب مع صوت المؤذن من مكبرات صوت عديدة من مأذنة الجامع الكبير ....**

مراهقان يتشاتمان، عجوز متصابية تصرخ بصبي أزعجها بكلمات نابية صاحب محل بيع أقراص صوتية يملأ المكان بلحن راقص بكلمات دينية لم يوقفه رغم إعلان موعد الصلاة، السماء، حتى السماء فرقعت برعد مخيف وهرب بعضهم خوفاً من الصاعقة))[1].

([1])نبض الأزاميل (قصص قصيرة)، ص111-112.

يحتوي النص على عناصر ديستوبية، فعلى الرغم من عدم حضور الصراع بين الشخصيات داخل القصة بشكل واسع، إلا أن نسق الديستوبيا بدأ مهيمناً على أجواء المدينة، حيث يصور بيئة مزدحمة وفوضوية تتقاطع فيها الأصوات الصاخبة والمتناشزة، يضاف إليها صوت سيارة الإسعاف وكذلك سيارة الإطفاء المقرون بالعويل والصراخ والشتائم التي ضيقت مساحة المأذنة وقت الصلاة، ففي هذه القصة غابت ملامح المدينة ولم تظهر أبنيتها ولا تفاصيل الأماكن فيها، إذ كانت الهيمنة للأصوات المتقاطعة الصاخبة، ليُظهر السارد ضياع حياة الإنسان في مدن الديستوبيا، فلا ملامح لها، ولا أسماء لشخصياتها، ولا حركة حياة فيها واضحة سوى الصخب الذي يملئ المكان.

ومن شواهد الديستوبيا أيضاً عند ضاري الغضبان، ما نجده في قصة **"العقول المستطرقة"** إذ يبين السارد في هذه القصة، أن الإنسان المعاصر وهو يعيش وسط هيمنة التكنلوجيا الحديثة، ضياع مقومات الحياة الأساسية وشيوع التفاهة واللا جدوى في الحياة، إذ تعمل هذه القصة على بيان بيع قيم الإنسان المتمثلة بعقله وفاعلية تفكيره، فثمت شخصية تسعى لشراء العقول، ترمز إلى العالم الرقمي الافتراضي، وثمة أشخاص يطلب منهم بيع عقولهم: **((وبعد مداولات بيننا نحن أصحاب العقول المعروضة؛ وجدنا فعلاً بأننا نمتلك عقولاً صدئة تلهو بها وسائل الإعلام وصفحات التواصل الاجتماعي وتستقبل الإشاعات دون تمحيص، واكتشفنا أن عقولنا بليدة ونائمة، والجزء الأعظم منها مغيب عن الاستخدام، وفعلاً ما نستخدمه قد يكون أقل من عشر الدماغ))**[2].

يصور هذا المشهد اقتناع هؤلاء الأشخاص، أصحاب العقول المعروضة للبيع، بأن عقولهم قد صارت صدئة ومرهقة، وأنها تلهو بلا وعي بوسائل الإعلام وصفحات التواصل الاجتماعي، حتى غدت عرضة للإشاعات وغياب التفكير، وقد أقروا على أنفسهم بأن جزءاً كبيراً من قدراتهم العقلية بليدة ونائمة، وأن الجزء الأعظم منها غائب عن الاستعمال، وهذا النسق السردي يعكس بطبيعة الحياة في العصر الحديث، إذ وضف الكاتب الثقافة الاجتماعية المتداولة ضمن تأثير الميديا على عقول وسلوك المجتمع الحديث، بنسق الشر المضمر خلف ستائر اللغة الإلكترونية، وهنا تكون الديستوبيا هي النسق الشائع والمهيمن في الحياة.

وتأتي قصة **"المذنب خالي"** على نفس النسق الديستوبي، حيث الجشع واحتكار الأموال هما السمة الغالبة في مجتمع القصة: **((نظر الجميع بحيرةٍ، حين بدأت صعقات الكهرباء تقدح عبر التابوت، تقرّبتُ بتوجس واستغراب، وحاول بعضهم البحث عن عازل لرفع السلك عن تابوت مسرور الذي بدت تستعر به النار فعلاً، لكن الجميع قد هربوا راجعين من أزيز تفريغ شحنات الكهرباء عبر التابوت والمترادفة مع فرقعات مفزعة.**

لحظات، وانقلع التابوت وطار، وهو مستعر وابتعد فوق البيوت بمنظرٍ مُذهل وصادم، كلهم لاذوا بالصمت والخوف إلا طفلاً صغيراً كان يمر على دراجته فقد صاح

- هذا مُذنَب! هل هو المذنب هالي الذي قرأنا عنه؟

لأردد؛ أنه خالي المذنب بحق نفسه وعياله، قد تحوّل للمُذِنب خالي، مثل ما هو مرحوم بعد أن كان محروماً، واسمه مسرور ولم ير سروراً في حياته))[3]

يتضح من النص، أن الخال الذي بينته القصة على أنهُ بخيل جداً، حرم نفسه وأسرته من التنعم بماله الوفير طوال حياته، لتكتمل دورة البخل والحرمان فاعليتها عند ابنه الكبير، ففي هذا النص تتضح مألات السرد الديستوبي، حيث يستمر الحرمان الذي عاشه الخال البخيل ويتجسد بشكل رمزي ومباشر في العقاب

([1]) رهان العقابيل (قصص قصيرة جداً)، ص95.
([2])سيلفي مع المتنبي (مجموعة قصصية)، ص17.
([3])المصدر نفسه، ص85-86.

القدري الذي طال على جنازة الخال المتوفى، إذ صعقته الكهرباء وتحرق جثمانه، ليبين السرد بذلك ديناميكية الحياة وتعاقب الأدوار وردود الأفعال التي تتجاوز الأحياء لتطال الأموات في جنائزهم، مثلما حرمت الأحياء من التنعم بخيراتها، وعلى هذا الأساس، يمكن القول أن الديستوبيا في هذا النص ليست مجرد تصوير لبيئة قمعية أو مهددة، بل هي خطاب سردي مضمر وضفة الكاتب للتعريض بشرور النفس البشرية حين تنزع أو تميل إلى الصفات والخصائص الشريرة.

المصادر

1. معجم مصطلحات الأدب، د. محمود علي مكي و فاروق شوشة، ط1، دار الكتب، القاهرة، 2007.
2. اليوتوبيا والديستوبيا في رواية أحمد خالد توفيق، إنجي خالد أحمد، ط1، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2023.
3. الأيديولوجيا نحو نظرة تكاملية، د. محمد سبيلا، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992.
4. معجم النقد الأدبي، كامل عويد العامري،ط1، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، 2013.430.
5. الأمل واليوتوبيا في فلسفة إرنست بلوخ، عطيات أبو السعود، ط1، مؤسسة هنداوي للنشر، 2021.
6. المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، د. عبدالمنعم الحنفي، ط3، مكتبة مدبولي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2000.
7. اليوتوبية: مقدمة قصيرة جداً، لايمان تاور سارجنت، تر: ضياء ورَّاد، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2016.
8. مفاتيح اصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، طوني بينيت ولورانس غروسبيرغ وميغان موريس، تر: سعيد الغانمي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2010.
9. المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ماريا لويزا برنيري، تر: د. عطيات أبو السعود، ط1، عالم المعرفة، الكويت، 1997.
10. اليوتوبيا معياراً نقدياً، كامل شياع، تر: سهيل نجم، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، بغداد، 2012.
11. الايديولوجيا واليوتوبيا: مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة، كارل مانهايم، تر: د. محمد رجا الديريني، ط1، شركة المكتبات الكويتية، الكويت، 1980.
12.)ينظر السلطة والهامش إستراتيجية النقد الثقافي في مقاربة المتخيل الأدبي.
13. اليوتوبيا المفقودة، محمد كامل الخطيب، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، دمشق، 2001.
14. المرجع في روايات الخيال العلمي، كيث بوكر و آن ماري توماس، تر: عاطف يوسف محمود، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010.
15. أدب النهايات الإسرائيلي- البدايات والصيرورة، أنطوان شلحت، مجلة قضايا إسرائيلية، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، فلسطين، العدد60.
16. الديستوبيا في الرواية العربية المعاصرة(المدينة الفاسدة)، مجدولين علي عبدالرحمن، مجلة جرش للبحوث والدراسات، مج.23، العدد.2، 2022.
17. نبوءات الخيال العلمي، ياسين أحمد سعيد، ط1، دار فانتازيون للنشر والتوزيع، مصر، 2018.
18. ملامح الديستوبيا وتمظهراتها في المسرح العراقي، أ.م.د شيرين جلال محمد أحمد الطنطاوي، المجلة العلمية لعلوم التربية النوعية، ع.16، 2022.
19. الديستوبيا: المستقبل المخيف في الأدب العالمي، معتز حسانيين، مقال على شبكة الأنترنيت، 2016.
20. الرواية الديستوبية المصرية (مظاهرها ولغتها)، أ.م.د أسماء إبراهيم حسين شنقار، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور،ع.5، ج3، 2020.